مادية الغرب وروحانية الشرق

بقلم البحاثة الجليل الاستاذ أحمد أمين
الأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الاستاذ أحمد أمين ، من أساتذة الجامعة المصرية الذين يشار اليهم بالبنان، كأنى به قد خلق للبحث والتمحيص، وليقضى عمره بين المحابر والاقلام ، وما من شك مطلقا ، في أن جهوده المثمرة التي تلمس آثارها في الجامعة المصرية وفي لجنة التأليف والنشر ، وفي كتبه النادرة المثال، وفي ذلك كله ، خير شفيع لما نقرر عنه من قول ؟ المحرر

شاع أن حياة الغرب حياة قوامها المادة، هي مقياس كل شيء عندهم حتى في تقويم المعنويات، وأن الشرق يمتاز بالروحانيات والمعنويات: فهل هذا الكلام صحيح ؟ وإن كان فما تحديد المادية وما تحديد الروحانية وما هو المظهر لروحانية الشرق التي لانجدها في الغرب ؟ وأخيرا أريد من مقالي أن أسترعي نظر الكتاب لعلهم يتوجهون نحو هذا البحث لأنه إن كان صحيحا أن في الشرق عنصرا ليس في الغرب، فمن الحق أن نستكشفه ونوضحه إيضاحا تاما حتى نكاد نلمسه، ثم إذا هو وضح وحدد أمكننا أن ننقد في ضوئه تقليدنا للغرب في نظام التربية وسير العلوم ومذاهب الفلسفة، واستطعنا بعد استكشاف هذا العنصر ان نوفق بينه وبين مايلائمه من نظم علمية واجتماعية — ولعلنا إن فعلنا ذلك استطعنا ان ننشيء بناء جديدا شرقيا له خواص ومميزات غيرما للبناء الغربي، وأن نضع على هذا البناء الشرقي علم الروحانية ، كما وضع على البناء الغربي علم المادية ، ثم قد يقف هذان البناءان امام بعضهما موقف حصنين مسلحين يصوب كل منهما مقذوفاته نحو الآخر حتى يحكم القدر بغلبة أحدهما ، وقد لا يكونان حصنين حربيين بل يكونان بيتين سلميين يسكن أحدهما جزء من أسرة ويسكن الآخر باقي أفراد الأسرة وهما في حياتهما متعاونان في الحياة تعاون الرجل والمرأة في البيت الواحد ، او الأكسجين والأيدروجين في تكوين الماء.

وهذا من غير شك موضوع في منتهى الصعوبة نحتاج للوصول فيه الى نتيجة حاسمة ان يتعاون المفكرون على بحثه وتحليله ومزاولته من جهات متعددة.

قد يفسر بعض الناس مادية الغرب بأنه يسير في حياته حسب مايرشده الدرهم والدينار ولا يقوم الأشياء الا بعملية حسابية يجمع فيها ماينتجه العمل من جنيه وما يفقده من جنيه فان كانت نتيجة الجمع والطرح عددا موجبا أقدم على العمل، وإن كانت عددا سالبا أحجم عنه، فأما المعنويات وأما العواطف فليس لها كبير قيمة.

إن كان هذا هو المعنى واتخذنا هذا معيارا ونظرنا بعد الى الشرق والغرب، فماذا تنتج المقارنة؟

ألسنا نرى اغنياء الغرب يتبرعون بالأموال الطائلة للأعمال الخيرية لأمتهم وللانسانية عامة فيخرج الغني عن نصف ماله او ثلثه للتعليم واعانة المنكوبين وجمعيات الاحسان والرفق بالحيوان ومستشفيات المرضى وملاجيء الزمنى على حين ان الشرقي قل ان يأبه لذلك فاذا هو تبرع لشيء خوفا من امير او ملقا لعظيم أو هو يحاول ان يجعل تبرعه ثمنا لشيء يود الحصول عليه من نيل

جاه او قضاء مصلحة — إن كان ذلك فأى الاثنين أمعن فى المادية آلغربى أم الشرقى ؟

لقد ظلت الجامعة المصرية تمشى الهوينى بل تمشى عرجاء ماعاشت تحت رحمة التبرعات ولم تستطع ان تقوم لها قائمة حتى ضمتها الحكومة إليها — ذلك والجامعات فى اوروبا واكثر المدارس انما اسس وعاش وازهر واثمر بمجهود الأفراد وتبرع الأغنياء.

الم تسمع بمئات المشروعات فى الشرق آمن الناس بصلاحيتها وضرورتها للحياة الاجتماعية ثم ماتت جنيناء او ماتت فى مهدها،لأن الأغنياء — وهم عديدون فى كل امم الشرق — قبضوا ايديهم وسدوا آذانهم عن كل دعوة،فيئس الدعاة، ومل الهداة يذوبون اسى وحسرة على ماأصابهم من خيبة وفشل،فأين معنوية الشرق ومادية الغرب ؟

ثم لننظر مثلا إلى معانى الجمال فى الحياة: اى القومين اشد لها تقويما؟ آلغربى،وهو قد ينفق فى إدراك الجمال اكثر مما ينفق فى المادة،فيعنى بحديقته وجمالها ويعنى بالأزهار على مائدته وفى كل حجرة من بيته،ويؤثث منزله اثاثا اساسه الجمال،مهما كلفه من نفقة، ويتخير الحى الجميل يسكنه ، والمنزل الجميل يقيم فيه،ولو اقتصد من مأكله ومشربه... ام الشرقى،واكثر همه بطنه ، يعنى بمأكله وأثاثه من الناحية المادية فيه لا من ناحية جماله، فأين معنوية الشرق ومادية الغرب؟

وإن شئت فانظر معى الى المبشرين، وقد جندوا للدعوة، وباعوا انفسهم فى خدمة دينهم، فهم يجوبون الأرض من مشرقها لمغربها،لايعبأون بحر ولا قر،ولا يأبهون لنعيم الحياة وزخرفها يعيشون فى البادية كأحد افرادها،يأكلون مما يأكلون منه،ويشربون مما يشربون،وينامون فى أكواخ حقيرة،ويتلذذون من الأذى يصيبهم،والمرض يفتك بهم،ولا يبالون مايتعرضون له من أخطار، ويستعذبون الموت فى سبيل نشر الدعوة ، وتعال معى الى رجال الدين فى الشرق كيف يعز عليهم ان يفارقوا وطنهم، وكيف لايسمحون ان يضحوا بقليل من العرض الزائل للنعيم الباقى،فأين معنوية الشرق ومادية الغرب؟

ونظير هذا رجال الدين من وجهة التعليم: كالفريز،والجزويت،والراهبات،كيف يعيشون عيشة الكفاف ويجدون فى التعليم لعلهم يظفرون ببغيتهم من مبدأ دينى يبثونه بين تعاليمهم،وانظر معى الى تناحر المعلمين منا، وغير المعلمين على الدرجات والعلاوات والكادر الجديد والكادر القديم ،وهل تجد كثيراً فى الشرقيين يعدون مثلا فى انكار الذات،فأين معنوية الشرق ومادية الغرب؟

واخيراً فأين التضحيات بجميع انواعها؟اهى اكثر فى الشرق ام فى الغرب ؟ اين التضحية العلمية من عالم يتوفر على بحثه ولا يكون له هم فى الحياة الا نجاحه فيه، ولا يهمه ان يعيش فقيراً أوغنياً؟ وآخر يكب على ميكروب يكتشفه ويقضى عمره فى اختبار علاج يقاومه به،وهو اذ ذاك قد يعرض حياته للخطر،وقل مثل ذلك فى التضحية الاجتماعية،فأصحاب المبادىء يؤمنون بها ايمانا يملك عليهم نفوسهم ويضحون براحتهم وهنائهم من اجلها .

هذه التضحيات وأمثالها كثيرة فى الغرب، وقل ان نجدها فى الشرق ، فأين مادية الغرب ومعنوية الشرق؟

قد تقول : إن هناك مظاهر فى الشرق تدل على معنوية لاتجدها فى الغربى كا كرام الضيف بهذا المعنى الذى يعرفه الشرقى، فالضائف يغمر ضيفه بخيراته ولا يقتصر على ماندعو اليه الحاجة، بينا الغربى يدعو اثنين فلا يتسع اكله لثالث، وهكذا من مظاهر الكرم الشرقى والبخل الغربى — وقد تضرب مثلا بالعلاقات العائلية فى الشرق والغرب، فرب العائلة يعول أسرته وفيها القريب والبعيد، فيها الابن وبنت العمة وبنت الخالة، ثم هو يحمل عبء ابنه وابنته فى الحياة لا الى حد، فاذا خاب الابن او عنست البنت فبيت الأب يسعها دائما، مع ان الغربى عادة لا يعول الا اقرب الناس اليه، ثم هو يعولهم الى امد محدود، فاذا جاء الزمن الذى يستطيعون ان ينهضوا فيه بعبئهم تركهم وانفسهم يتحملون مشاق الحياة وويلاتها، ولكن ألست ترى معى ان هذه الامثلة لاتدل على رقى فى المعنويات واحتقار للماديات وان كرم الضيف بالمعنى الذى يفهمه الشرقى مادية مضطربة وهو بالمعنى الذى يفهمه الغربى مادية منظمة، بل هو اقرب الى المعنى منه الى المادة ، فكأن الشرقى لايفهم من الاكرام أن يتخمك، بينا يرى الآخر أن يحيطك بجو من الامتاع والمؤانسة وكذلك الشأن فى المثل الآخر، فخير للمجتمع أن يحمل كل عبء نفسه مااستطاع أن يحمله.

الحق أن المظاهر كلها تدل على أن الغربى يفوق الشرقى فى هذا الضرب من المعنويات التى ذكرنا، فأين إذاً موضع هذا القول الشائع ؟

للمسألة وجه آخر غير الذى ذكرنا، وهو أن معنى الروحانيات غير معنى المعنويات ، وأن المعنويات التى ضربنا لها الأمثلة السابقة كثير منها ليس إلا ماديات راقية، فأما الروحانيات فظهرها أشياء غير هذه كلها، مظاهرها الألهام والايمان بالغيب ونزعة التصوف.

أدرك هذا مؤرخو الفلسفة اليونانية فرأوا انها لما انتقلت إلى الأسكندرية صبغت بصبغة جديدة شرقية ، رأوا ان الفلسفة اليونانية ، وبما امتازت به من دقة وتحليل منطقى واعتداد بالعقل كل الاعتداد ، تغيرت تغيرا تاما لما أتت الشرق فزج العقل بالشعور والالهام، وامتزج التحليل المنطقى بالعواطف، وامتزج الفكر البحت بالتدين والتصوف.

أليس الغرب مديناً كله للشرق بديانته؟ فالاسلام واليهودية والنصرانية والبوذية — وهى التى تسيطر على أكثر العالم — نشأت فى الشرق لا فى الغرب ، ثم أليس ماأعجبت به من تضحية فى التبشير ورهبانية وبيع الأرواح فى سبيل الدعوة الدينية نتيجة من نتائج الأديان الشرقية؟ أليست الكثلكة والأديرة، وخانقاه الصوفية وما إلى ذلك من معاهد الروحانية تأسست فى الشرق أولا؟

ولكن عند هذا الحد من التفكير يعترضنا سؤال خطير وهو : إذا كان الشرق منبع

(البقية على الصفحة رقم ١٢٠٠)